6

السادات يدخن الـ«كنت» في مجلس الأمة

obeikan.com

obeikan.com

لمصر أربعة ثوابت .

وعندما نقول أن الثوابت لمصر ، فإننا نعني أنها لشعبها ، شعبها كله ، باختلاف طبقاته وعقائده « لا يشذ عن هذه القاعدة إلا أصحاب المصالح الوقتية الزائفة والمؤثمة ـ وهم يشكلون طبقة وأنصارها من المستغلين في كل وقت، والمرتبطة مصالحهم بالرأسمالية العالمية، بالطبع وهو شذوذ يؤكد القاعدة ولا ينفيها » .

هذه الثوابت الأربعة تولدت في كفاح طويل مرير ، تلا تخبطًا أطول وأمر ، إن ثلاثمائة سنة ، قد مرت منذ بداية القرن الثامن عشر ، ومصر ـ شعبها ـ تكتشف ثوابتها وتكتشف سبيلها للتمسك بهذه الثوابت وتحقيقها « قبل وصول الحملة الفرنسية بمائة سنة على الأقل » ، وثوابت مصر الأربعة كانت وما زالت هي الديموقراطية ، التحرر الوطني ، العدالة الاجتماعية ، الانتماء العربي .

هذه الثوابت يتفق عليها الجميع ، وإن اختلفت تصورات الجميع عنها ـ أيضًا ـ اختلافًا كيفيًا « كيفية تحقيقها ، والكيفية التي تكون عليها لحظة التحقق ، ومن هي القوى صاحبة المصلحة التي تريد وتستطيع تحقيقها ، ولمن الفائدة من وراء التحقق في المقام الأول ؟ وليس اختلافًا في الرغبة فيها والسعي من أجلها ، أو حتى تمنيها ، وهذا أضعف الإيمان » .

وهذه الثوابت ـ أيضًا ـ وبحكم التطور ، اختلفت تصوراتها لدى الجميع من عصر إلى عصر ، « واختلفت مسمياتها بالطبع » ، فالتحرر الوطني مثلًا ، اتخذ عدة صور متعاقبة ، تحرر داخل الخلافة الإسلامية ، تحرر يعترض على الخلافة الإسلامية « التي شاهدوا أفاعيل استغلالها » ، ويتمسك بالجامعة الإسلامية « الروابط التي تجمع كل الدول الإسلامية » ثم تحرر مصري يعمق مقولة مصر للمصريين ، ثم تحرر وطني داخل انتماء عربي اللغة ، إسلامي الثقافة « تتأثر ثقافته بثقافة الآخر

وأيضًا بثقافة الأقليات ، التي يتضمنها نسيجه ، مثلما كان حال الثقافة الإسلامية منذ عرفها التاريخ ، إلى أن عرفت التاريخ ، إلى أن عرفناها هي التاريخ ، إلى أن عرفناها في ذمة التاريخ ، تاريخنا المشترك في منطقة متصلة جغرافيًا مهيأة للوحدة .

ومثل التحرر الوطني اتخذت بقية الثوابت صورًا ارتقائية ، ومسميات متوالية ، بحسب الثقافات السائدة في كل عصر من تلك العصور .

قلنا : إن هذه ثوابت الشعب ، ولأنها شعبية ذات جذور غائرة في وجدان المصريين الجمعي ، وفي نفوسهم ، فإن هذا الشعب لم يعشق إلا من تمسكوا بها وحاولوا تحقيقها ، ولم يعط ولاءه إلا لمن أخلصوا لها ، ولا دموعه في الجنازات المهولة الهائلة أيضًا إلا لهم .

هكذا ، وبها أحب الشعب شيخ العرب همام وتغنى بسيرته .

وأحب عمر مكرم وسار وراءه .

وأحب أحمد عرابي « وكيل الأمة » وثار به .

وأحب سعد زغلول وسابقه ثائرًا .

وأحب جمال عبد الناصر ثائرًا بالنيابة عنه .

ثم أحب ألا ينوب عنه أحد ولا يفوض أحدًا في أمور ثوابته ، حتى جمال عبد الناصر بجلال قدره ، أحب أن ينوب عن نفسه، ولا يفوض من يحبهم ، أحب الديموقراطية ، أكثر من أحبائه ، هكذا علمه الأحباء بتجاوزاتهم، بل بسقطاتهم ، وآه من طعنة الحبيب .

وفي عجالة « بينما الأمر يحتاج إلى تفصيل ومناقشة ومراجعة للذات القومية وثوابتها التاريخية » ، نقول : كانت مصر قبل القرن الثامن عشر مدينتين كبيرتين

« القاهرة ودمياط » ، وأراضي زراعية كبيرة خاضعة لنظام الالتزام ولأن التجارة كانت مزدهرة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وتحول طريق التجارة إلى طريقه ، مبتعدة عن الفشل الإداري والأمني في نهاية عصر المماليك في مصر وأيضًا كانت قد ازدهرت بعض الصناعات ، لم تشعر المدينتان بآلام الفلاحين تحت كرابيج الالتزام ، ذلك أن المتعلمين « المثقفين » منذ بدء التاريخ في مصر ، كانوا ينفصلون عن قراهم ليعيشوا حول القصر « قصر أي حاكم » يصنعون حياتهم المعزولة ، وقد انحصرت مهمتهم في خدمة تطلعاتهم الوظيفية وفي الحفاظ عليها وفي الخدمة العامة ضيقة الأفق عندما يلجأ إليهم الأهل طلبًا للعون في حل مشاكلهم « مشاكل الأهل » الإدارية الوقتية مع السلطات حلولًا سلمية ولولبية أيضًا ، بعدها ، مثلما قبلها ، يبقى الأهل معزولين عن أبنائهم المتعلمين ويبقى المتعلمون معزولين عن أهلهم «وهو أمر ـ على مَرّ العصور ـ ظل يضعف المتعلمين والأهل ، إذ أبقى المتعلمين بلا ظهر حقيقي من الناس ، وأبقى الناس بلا طليعة ، تستطيع أن تحول الوعي الغاضب من الاستغلال إلى وعي كامل يمتلك الوسيلة التي تحارب هذا الاستغلال « هل تذكر الوعي والوسيلة ، من الفصل الفائت ؟ » .

وقد دخل القرن الثامن عشر والتأثر التدريجي السلبي لاكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول الطريق التجاري العالمي بعيدًا عن مصر ، قد وصل إلى مداه فقل الدخل العام ، وتقلص الاهتمام بالزراعة ومشروعات الري إلى حد لا يمكن قبوله .

شيء واحد لم يتقلص ، هو اهتمام خليفة المسلمين « العثماني » بخراج مصر ، ضاربًا عرض الحائط بالوسيلة التي يجمع بها الخراج من المسلمين ، « ومن المضحكات المبكيات « وكم ذا بمصر » ، أننا ظللنا ندفع هذا الخراج ـ الجزية !! للحكم التركي ـ تحت زعامة أتاتورك ومن جاءوا بعده ، هذا الحكم الذي لم يرث

الخلافة ، حتى سنوات من حكم جمال عبد الناصر ، بينما كانت الخلافة قبلها ـ بأكثر من ثلاثين سنة ـ قد انهارت وشبعت موتًا » .

ولأن الخليفة لم يكن يهتم إلا بخراج مصر ، رأى شيخ البلد « كبير المماليك المقيمين في مصر ـ الخادمين السلطة العثمانية ـ المسماة جورًا بالخلافة الإسلامية » ، أنه أهم من الوالي الذي يعينه السلطان من لدنه ، والذي يأتي ويروح قبل أن تسمح له سنوات الإقامة بأن تحلوا مصر في عينيه ، وهكذا بدأ صراع شيخ البلد والوالي ، وبدأ صراع بين المماليك المقيمين أنفسهم على وظيفة شيخ البلد ، وكان الصراعان على السلطة ، ومن أجلها اشتدت الصراعات ، بينما اقتصاديات مصر تنهار تجاريًا وصناعيًا وزراعيًا ، والتواجد التجاري الأجنبي يزداد مستخدمًا مسيحي الشرق التابعين لكنائس غربية « الشوام » ، ويهود الشرق التابعين لأي استغلال أيًا كان منبعه، والذين حلا لهم عبر التاريخ أن يكونوا أدوات ظلم للأغيار من غير اليهود ، دعائم له متخذًا من القاهرة ، والإسكندرية « التي بدأت تأخذ وضعها » ، مستقرًا له وللوثبة الأجنبية المزمعة ، التي راحت تمهد لها الإرساليات التبشيرية المتناثرة في عموم القطر ـ كاثوليك ثم بروتستانت ـ وبخاصة في صعيد مصر .

واستخدم المماليك في صراعهم على وظيفة « شيخ البلد » ، وفي تأكيد سلطاتهم في مواجهة الوالي العثماني ، عرب مصر « البدو » المقاتلين ، وجعلوا الصعيد ملجأ لهم، ومكمنًا للانقضاض من جديد، حيث توجد القبائل التي لم تعرف كبدو الشمال الشرقي ، خير الزراعة العميم في الوجه البحري .

ولأن الخليفة لم يكن يهتم إلا بخراج مصر ، بدأ معدل تغير الملتزمين الزراعيين يتزايد ، فالذي كان يعد بزيادة في خراج منطقة ، كانوا يعزلون غيره ويولونه ويلتزمها ، ويزداد ظلمًا وجورًا .

هكذا توحدت آلام المدن وآلام القرى، حين اشتد العسف على التجار والمتعلمين « وأغلبهم من الأزهريين » ، مثلما كان التعسف زائدًا على الفلاحين في كل القرى المصرية .

وهكذا أيضًا قويت شوكة عرب مصر « بدوها » ، وبعضهم كالهوارة أبقى على صلاته البدوية ، وحصل على الالتزام الزراعي ـ أي أنهم تملكوا الحسنيين ، القوة المسلحة والسيطرة على خير الوادي الخصيب ، ومن هؤلاء الأخيرين ظهر شيخ العرب همام .

تدخل شيخ العرب همام وهو من الهوارة ـ برجاله المقاتلين الأشاوس في صراع السلطة في القاهرة ، واستقبل الباكوات لائذين به ، يستعينون بقوته ـ وبقواته ـ على الغرماء وانكشف المستور فسقطت الهالة المقدسة للخلافة وبان الأمر أمر خراج وحسب ، ففكر الشيخ همام بأن يمد حدود التزامه ثم انتهى به التفكير إلى الاستقلال بالصعيد ، على أن يدفع خراجه ، « وكان الصعيد وقتها متقدمًا تجاريًا وصناعيًا وله علاقات مثمرة ماديًا مع أفريقيا » .

هكذا بدأت فكرة الاستقلال ، أو التحرر داخل المنظومة الخلافية ، أو منظومة الخلافة ، والحق أن شيخ العرب همام أظهر براعة شديدة في إدارة أمور الصعيد ، مظهرًا جنينًا للديموقراطية وجنينًا للعدل الاجتماعي ، جعلاه أسطورة وموالًا شعبيًا يتغنى به الصعايدة حتى اليوم .

بعدها ، قلد علي بك الكبير الشيخ همام ، « وخل بالك من قلد هذه » ، وأعلن وهو « شيخ البلد » استقلاله بمصر ، واستخدم السلطان العثماني « خليفة المسلمين » ، الخائن محمد بك أبي الدهب لضرب الاثنين : علي بك الكبير وشيخ العرب همام ، « ضرب النزعة الاستقلالية » ، واستخدم كبار قواد جنده العثمانيين ، لضرب

المماليك في رحلات متتابعة ، ليثبت في كل مرة شيخًا للبلد في مواجهة بقية المماليك الطامعين المتصارعين على المشيخة « الأمر الذي استمر إلى التسعينيات من القرن الثامن عشر ، قبل مجيء الحملة الفرنسية بسنوات قليلة ، وكان من الممكن أن يستمر لولا أن جاءت الحملة » .

هذا الاضطراب الشديد أدى لظهور قوة « مشايخ الأزهر » مثقفي العصر وتدخلهم في الحياة السياسية كزعامات للناس الذين لم يعودوا يطيقون صبرًا على الظلم الجائر والفشل الإداري المتفشي ، هذا التدخل الذي انتهى إلى وثيقة بين الحكام والمحكومين عام ١٧٩٥م « الماجنا كارتا المصرية » ، كان المشايخ فيها مسئولين عن الديموقراطية « بمواصفات عصرهم » ، عن العدل الاجتماعي بلغة عصرهم ، بينما اختلط لديهم ، وهم المشايخ ـ الاستقلال والخضوع للسلطة الدينية الأعلى « الخلافة » .

وفي تلك الفترة انقضت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م بصدمتها الكبرى حضارة مظهرية وبربرية كامنة ، فبدأ عمر مكرم ـ الشيخ ـ الذي فر إلى الشام يدير مع العثمانيين « الذين استعانوا بالإنجليز » ، عملية تحرير مصر ، وانكشف له المستور ـ وهو الشيخ ـ من أمور الخلافة الإسلامية .

لذلك ، عندما تحررت مصر من الفرنسيين أراد عمر مكرم أن يستكمل تحريرها ، وكان وقتها يحارب ثلاث دول عظمى ، أرادت أن ترث الفرنسيين في مصر ، وأخطأ عمر مكرم عندما كون لمصر جيشًا من المرتزقة « لم يكن لمصر جيش منذ انتهاء عصر الفراعين إلا من المرتزقة » ، وهكذا يأتي خطأ الشيخ متسقًا مع ثقافة وقته ، وهكذا لمع نجم محمد علي ، الذي انقض أولًا على عمر مكرم ثم على المماليك ، ومع محمد علي بدأت المأساة « التي يتكلم عنها المرتدون ثقافيًا على أنها تكوين وبناء مصر الحديثة » .

أراد محمد علي استكمال مسيرة الاستقلال ، بتكوين إمبراطوريته التركية الخاصة ،

عمد إلى تطوير الزراعة المصرية « ليتوافر لمشاريعه الخاصة الكبرى ـ في الحصول على عرش الخلافة هناك في اسطمبول ـ دخل كبير يحققها » ، وتطوير الصناعة العسكرية « لتحقيق مشروعه بالقوة العسكرية » ، واختط في تطوير مصر نموذجًا شبيهًا بالنموذج الغربي « فرنسي في الأغلب » ، بينما كانت اليابان تصنع نموذجها القومي الخاص « هل حقق النموذج الياباني كل هذا التقدم لأنه خاص وليس صورة من النموذج الغربي ؟!! أظن ذلك ، فإن أي محاولة للتقدم لا تتسق وثقافات الأرض الناشئة عليها محكوم عليها أن تبقى دائمًا بلا جذور ، أو أن تبقى مثلما يقول المثل العامي : « زي القرع يمد لبره » ، وهكذا يتمكن من هم « بره » من السيطرة عليها وأهم ما يريدونه من سيطرة هو التحجيم » .

وعندما قامت الدولة العظمى قومة رجل واحد على محمد علي ؟ وأجبرته على التقوقع داخل مصر حسب معاهدتي ٤٠-١٨٤١م ، نسي خططه في تطوير مصر ، وأغلق المصانع ، وطارد العائدين من البعثات ، ومنهم أو على رأسهم رفاعة الطهطاوي العظيم ، لكن محمد علي كان قد أخطأ خطأ عمر مكرم « وكأنما الأمر انتقام القدر » ، فإذا كان عمر مكرم قد كون لمصر جيشًا من المرتزقة أودى باستقلالها ، فقد كون محمد علي جيشًا من المصريين ، أودى بأحلامه في أسرته ، فمن هذا الجيش جاء أحمد عرابي ، ليقبض مرة أخرى على الثوابت المصرية ، وكيلًا للأمة يعاونه مثقف الأمة الأعظم عبد الله نديم ، صائحين : « مصر للمصريين » ، وليست لأسرة محمد علي وعملائها من الشركس والأتراك ، وليست أيضًا للباب العالي الذي لا يعرف بحقوق المصريين ، ولا يهتم إلا بناتج عرقهم من خراج الأرض .

ولأن عرابي تمسك بالثوابت المصرية كلها ، ولم يفلت شيئًا منها ، لم تمهله الدول العظمى وسارعت بالتدخل والاحتلال ، قبل أن يولد الجنين ، وقاومها الجنين

مقاومة هي الأروع ، وانهزم هزيمة العظماء ، إلى حين ، وكما انهزم أصبحت الأسرة العلوية « أسرة محمد علي » « شخشيخة » في يد الإنجليز ، حتى آخر مندوبيها في مصر ، فاروق الأول ملك مصر وابنه الرضيع الذي عينته الثورة وليًا للعهد ، وعينت عليه مجلس وصاية ، ثم خلعته.

لكننا قلنا : أن الثورة العرابية انهزمت هزيمة العظماء إلى حين ، ذلك أنه من مدرسة الأفغاني التي جاء منها عرابي ونديم ، جاء سعد زغلول قابضًا على الثوابت المصرية ، « متخففًا من العدل الاجتماعي » جاء بتوكيل من الأمة ، « جمع الشعب له الإمضاءات وكيلًا عنه في بحث مسألة الاستقلال مثلما جمع عبد الله النديم إمضاءات المصريين من كل حدبٍ وصوب لأحمد عرابي ، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا : أن الثورة العرابية التي انهزمت ١٨٨٢ ، قد قامت مرة أخرى في عام ١٩١٩ » ، وسانده الشعب بثورة هي الأعظم ، فلما نجح نجاحًا مذهلًا في المجلس النيابي ، صمم على تهدئة الشعب ليتحول من وكيل الثائرين إلى المفوض عن الأمة الهادئة!! ، فانتهز الإنجليز الفرصة وانقضوا على ثورة ١٩١٩ العظيمة ، وعلى المجلس النيابي « في حادثة السردار » ، وعلى دستور ١٩٢٣م المستحدث ، حلم الأمة المصرية بعدها بسنوات ، بعد أن ألغى العمل به واستبدله « صدقي » بدستور ١٩٣٠ ، الذي أضعف دور الأمة ، وغالى في دور الملك وبطانته من الوزراء » .

عاد الوفد ـ بعد وفاة سعد زغلول ـ وفاة من لم يع الدرس جيدًا ـ مرة أخرى بقيادة مصطفى النحاس يبحث عما كان في يده أو ما كان بعضه في يديه ـ الديموقراطية والاستقلال ـ محققًا أسس العدل الاجتماعي « التعليم مثلا » مؤجلًا كثيرًا منها إلى أن سبقت الحركة الشعبية خطاه في انتفاضة ١٩٤٦م « هل تذكر ما كتبناه عنها ؟ » ، ليعاود الوفد محاولة اللحاق بالحركة الشعبية في إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التي وقعها الوفد نفسه

مع الإنجليز ، وإعلان الكفاح المسلح أو مساعدته ، ويزداد تجبر الإنجليز « فعلتهم المشينة ضد ضباط وجنود الشرطة في الإسماعيلية ، التي تشبه فعلتهم المشينة في دنشواي وأفعالهم الشنعاء أثناء قمعهم ثورة ١٩ ، وانتفاضة ١٩٣٥ ، فتحترق القاهرة (يناير ١٩٥٢)، ويحترق معها الوفد « خضع الوفد للملك وأعلن الأحكام العرفية لتقييد حركة الجماهير ، صادمًا الجماهير » ليجدها الملك فرصته في عزل الوفد ، دون أن يجد الوفد من يبكيه وقتها ، هناك من يبكونه الآن » .

ثم يجيء جمال عبد الناصر وتقبض ثورته على الثوابت المصرية « متخففة هذه المرة من الديموقراطية » وتحقق الثورة إنجازات كبيرة وعظيمة وتحقق كسلطة مآسي فظيعة ورهيبة ، فيسهل الانقضاض عليها عام ١٩٧٤م « ليست حقيقيًا أنه قد تم الانقضاض على الثورة في ١٥ مايو ١٩٧١ ، فالذي تم وقتها انقضاض على رجال عبد الناصر الذين رآهم الشعب في ذلك الوقت أسوأ من أنور السادات شخصيًا ، وقد كانوا أسوأ منه في سنوات حكمه الأولى بالفعل » ، دون أن توجد قوة شعبية كافية تقف من أجلها فقد كانت الثورة قد عودت الشعب على أنها تضرب أعداءها ، وتضرب أصحاب المصلحة أيضًا إذا أرادوا المشاركة في حماية مصالحهم ، أضف إلى ذلك أن التفويض الذي عودوا عليه الشعب يسمح لمن يمسك بمقاليد الأمور بأن يركب أي موجة ، وقد لعب السادات على الناس لعبة الديمقراطية - بنصيحة من محمد حسنين هيكل - فلم يعرفوا أنها لعبة وشربوها ، ذلك أن السادات وقتها رفع شعار الديموقراطية « الناقص » مرحليًا كما أشار عليه محمد حسنين هيكل ، ثم أظهر أنيابها فيما بعد بما أشار عليه المنتفعون الجدد .

هذه العجلة « وإن بدت مطولة » ربما تكون قد أظهرت لنا رحلة الشعب مع ثوابته الأربعة ومع من أحبهم ممن أخلصوا لكل أو لأغلب هذه الثوابت المصرية تلك

الثوابت التي تأكد لنا أنها يجب أن تؤخذ ككل ، وأن التضحية بواحد منها يهزم الكل ، مهما حسنت النوايا ، ومهما بدت لنا ـ وهي حقيقة ـ عظمة القادة المستمسكين بها .

ربما بهذا الوعي « الوعي بضرورة اكتمال الثوابت المصرية حتى لا تنهزم من جديد واجه الجيل جمال عبد الناصر ، وواجه السادات ، مصممًا على الاستقلال « التحرر » والديمقراطية « حرية الرأي ، والمشاركة ، ورفض التفويض » ، والعدل الاجتماعي « الاشتراكية » ، والانتماء العربي (القومية العربية) تحقيقًا للأمن القومي المصري « خلي بالك من كلمة المصري هذه » وتحقيقًا للحلم العربي التطوري والتنافسي في عالم لا يعترف بغير الكائنات الكبرى ، كل هؤلاء معًا ، فهم معًا مصر الحديثة القوية المتناغمة مع عصرها ، والتي لا يمكن هزيمتها ولو أراد الظالمون .

لكن حركة ٦٨ انطلقت من مواقع مختلفة فكريًا ، من مواقع ترى ضرورة تطوير النظام ، ومواقع فكرية أخرى ترى أن لابد وأن يتغير النظام « بالضغط الشعبي » لتحقيق الديمقراطية رافعة الشعار الجميل : « لا شرعية بدون ديمقراطية » ، لهذا كانت شعارات ١٩٦٨ خليطًا من الثوابت المصرية الأربعة كلها .

والآن لنترك هذه الثوابت قليلًا فسوف نعود إليها سريعًا ، ولنتذكر أننا ما زلنا مع محمد فريد حسنين ، الذي وعدوه أن تقابل اللجنة المكونة من اثني عشر طالبًا من مختلف الكليات جمال عبد الناصر .

يقول محمد فريد حسنين :

كانت إجازة عيد الوحدة « كانت مصر ما زالت تحتفل بعيد الوحدة رغم الانفصال » ، قابلنا الدكتور مرسي مدير الجامعة ، وكان رجلًا محترمًا ووقورًا وعظيمًا قال لنا : عربيات الرياسة ح تيجي تاخدكم ، لكن فجأة جه دكتور لبيب شقير « وزير التعليم وقتها » ، علاء حمروش رحمه الله بدأ الكلام معه ، وشرح

مطالب الطلبة ، ولما قلت : أنا فريد حسنين قال لي بلهجة خاصة : أهلًا يا سي فريد أنا عايز أسمعك « من سمات ذلك العصر أن المسؤولين فيه كانوا يشعرونك بأنهم يعلمون عنك كل شيء ، طبعًا بغرض إرهبك ، لقد كان المسؤولون يخافون ــ هم أنفسهم سطوة المخابرات القاهرة ، وكانوا لهذا يتمثلون قاهرهم عند التعامل مع غيرهم ، وهذه أهم خصائص الديكتاتورية حتى وإن كانت ثورية » ، وقلت : أنا باعتبر اللي حصل ده حاجة إيجابية والشباب عايز يشارك « خلي بالك من الكلام لكي نقلل رجوعنا إلى المحللين حسني النية » ، وباقترح أن حد بيجي من النظام يوم السبت يقول للناس إحنا متفهمين مشاعركم ، وقلوبنا معكم ، وسيتم التغيير الذي تريدون « مرة أخرى خل بالك من الكلام ، المشاركة والتغيير » .

ومرة أخرى فاجأهم د. لبيب شقير .

أنتم لا تعبرون عن الجامعة ، أنتم لستم اتحادات طلبة ، لن يتم مؤتمر يوم السبت « هكذا ، بالأمر » انتوا تروحوا وده أحسن ، ومش وقت اللي انتوا بتعملوه ده « دائمًا الوقت لا يكون وقت تدخل من الجماهير ، فأوقات الثورة كلها كما قلنا ــ وحتى الآن ــ أوقات عصيبة وأعداؤها دائمًا متربصون ، ومنعطفاتها تاريخية » ، وبعد أربع ساعات مناقشة ، صمم فيها على رأيه ، قام يمشي ، اعترضت طريقه :

أنت رايح فين ؟ وإيه التعالي ده كله ؟ إنت وزير نكسة !

« كان يقصد أنه كان عضوًا في وزارة النكسة » .

موشي ديان مش ح يقدر يكفرنا ببلدنا والظاهر إن انتم ح تقدروا .

(الحكومات الديكتاتورية تظن أن كفر المواطنين ببلادهم ، يريح دماغهم ، ويطلق يدها ، ولا تعرف ، أو هي تعرف ، أنه المفجر للعنف ، والعامل الأكبر في استشرائه ، وربما ــ أيضًا ــ تتصور ــ هذه الحكومات أن العنف أرحم من المشاركة ، فالعنف

فرصتها في إسكات كل الأصوات من حولها ، لأنها تقاوم العنف ، إنه بيت حجا الشمولي ، لكن الحكومات الديكتاتورية لابد تدفع الثمن في النهاية ، نهايتها بالطبع) .

لو كانت السفرة في بيوتكم نقصت رغيف كنتوا تغيرتم ، إنت عارف إيه اللي ح يحصل يوم السبت ؟! ، لو كنت عارف ما كنتش تتصرف كده .

وبالطبع لم يرسل النظام أحدًا يوم السبت وخرجت المظاهرات العارمة مظاهرات ٦٨ ، أخرجها من صمم وزراء النظام ، وأنصاره في التنظيم الطليعي على أنهم لا يمثلون القاعدة الطلابية!! ، فالمتسلطون الاستبداديون لا يحملون احترامًا للشعب ، ولا تقديرًا لإمكانياته ، ولا تصديقًا لقدراته ، إلى أن يفاجئهم الشعب ، فشل النظام في احتواء الموقف ، لماذا ؟ لأنه أصر على التفويض « إحنا ح نعمل اللي انتوا عايزينه وبلاش تتدخلوا لحسن أعداء الثورة تستغل الموقف » ، ولأن الشباب أصر على المشاركة ، التي يعبر عنها محمد فريد حسنين بقوله : « لما كنا بنقول عايزين ديمقراطية حقيقية ، كنا بنقول بكده كل حاجة » ، « خل بالك أن الشباب كان يعرف بأن جمال عبد الناصر متمسك بثوابت مصر كلها ما عدا الديمقراطية ، وهذا يشرح كلمة محمد فريد حسنين » .

وهكذا لم يرض النظام بالتفاهم ، دافنًا رأسه في الرمال ، وكانت الرمال هي زعمه بأن قادة الطلبة الذين أفرزتهم الأحداث والمؤتمرات لا يمثلون الطلاب ، مراهنًا رهانًا خاسرًا بأن شيئًا لن يحدث وأنه ـ بذلك ـ يكون قد تخلص من الأزمة كلها .

هكذا دخل النظام في الأزمة كلها .

السر الرهيب عند الدكتور أسامة :

قصة أخرى طريفة يقصها محمد فريد حسنين ، وفي طرافتها دلالتها ، يقول :

خرجنا من اجتماعاتنا مع د. لبيب شقير ، ركبت عربيتي ، وبينما كنت أمر أمام مقر

لجنة الاتحاد الاشتراكي بمحافظة الجيزة ، وجدت عربة د. أسامة الخولي راكنة أمامها ، طلبت من الفراش أن يبلغه بأنني أحتاج إليه « كان د . أسامة الخولي وكيلًا لكلية الهندسة ، وعضوًا بالاتحاد الاشتراكي ، وبعدها صار مستشارنا الثقافي في موسكو » .

خرج لي الدكتور أسامة ، بدأت أشرح له ما حدث ، فقال :

روّح دلوقت وتعال لي البيت « صباح يوم ٢٣ فبراير ١٩٦٨م » .

رحت له الصبح ، قال لي : هناك اتجاهان داخل النظام ، اتجاه يؤكد ضرورة الضرب بيد من حديد ونار على أيدي من يريدون المشاركة بالرأي في صناعة مستقبل بلدهم ، وتصحيح أخطاء النظام ، بحجة أنه « مفيش وقت للكلام ده » « كلمتهم الخالدة » ، واتجاه آخر يرى أن الطلبة معذورون ، وأن السلطة يجب أن تعاملهم بـ« الراحة » وتسمع اللي عايزين يقولوه ، لكن الخوف إن المظاهرات تجعل أصحاب الرأي المتشدد ، أعلى صوتًا من غيرهم وتعطيهم فرصة لرفض التغيير ، الذي يسعى إليه المستنيرون في النظام ، ويكادون يصلون فيه إلى نتائج في صالح البلد ، وهكذا ستعطلون بحركتكم الطلابية عملًا يتم لمصلحة مصر الآن ، الموضوع مش لعب عيال ، ده مصير أمة .

طرافة هذه القصة تكمن في مداراة مسألة التفويض ، إذا سكتم سيتم عمل كبير لمصر ، وإذا تكلمتم سيعاند النظام وسيسمع رأي أصحاب الموقف المتشدد داخله ، أما الرغبة في المشاركة « وكانت بعد سليمة » فهي « لعب عيال » أما دلالة القصة فترينا أن الحزب الشعبي « الاتحاد الاشتراكي العربي » كان يدعم الفكر العسكري في إدارة شئون الأمة ، « قائد الوحدة العسكرية مسؤول عن توفير احتياجاتك المعيشية وعن قيادتك لكن أن تطلب شيئًا بنفسك فهذا يعرضك للعقاب ، بل لمحكمة عسكرية » .

هكذا يدير العسكريون الأمور ، في السلطة وفي التنظيم الشعبي أيضًا .

والأكثر طرافة ، أن محمد فريد حسنين ، اهتز داخله ، وكان اهتزازه دليل براءة سياسية ، يقول ـ بشجاعة الصدق : رحت يوم السبت الكلية ، وفي ذهني أن لا شأن لي بأي شيء ، حاول الطلبة معي أن نكمل ما بدأناه ، قلت : ماليش دعوة ، قالوا لي : انت وانت ، وفجأة لقيت الولاد من كلية العلوم كسروا باب الكلية ، وخرجوا بمظاهرة ، كان يقودهم طالب للأسف لا أذكر اسمه « إخوته لديهم محل فول في الحسين » حسيت ساعتها أن المجموع رأيهم أصح ، وأفضل من رأي الفرد ، قلت للدكتور أسامة الخولي والدكتور محمود شريف وكانا يقفان في حوش الهندسة :

أنا من دلوقت ح أتصرف من دماغي .

(كان يقصد ضد الأوامر التنظيمية للاتحاد الاشتراكي ، والتي جاء الدكتور محمود الشريف « طبيب ومدير معهد السرطان ، ووزير الحكم المحلي السابق) إلى حوش كلية الهندسة غالبًا للإشراف على تنفيذها .

ويستطرد محمد فريد حسنين : وجريت وراء المظاهرات .

هكذا حسمها الطالب العادي وسبق قيادته ، بينما السلطة تراهن على أن القيادات لا تمثل جموع الطلاب ، وأن المعارضين عدد محدود ، لقد صحت السلطة من غفوتها فإذا المعارضين يملؤون الشوارع صخبًا ، وشعارات تهتف بسقوطها ، وغضبًا تفجرت منه الصدور .

كتب رماح أسعد في كتابه « سطور من يوميات الحركة الطلابية المصرية ١٩٧٨ ـ ١٩٧٣ » (ص٣٣) وما بعدها » .

كالسيل تتدفق الجموع الساخطة « من جامعة عين شمس » ، والسخط جاء من أن السلطة لا تريد أن تتفاهم مما يشي برغبتها في إبقاء الأمور على ما هي عليه « دون

تغيير » إلى ميدان العباسية ، فشارع رمسيس ، فمنطقة وسط البلد .

ومن جامعة القاهرة تنطلق المسيرة في اتجاه كوبري الجامعة ومنه إلى شارع قصر العيني ليتجمع الطلاب في حلقة بلا نهاية أمام مقر مجلس الأمة .

ويقول محمد فريد حسنين : وصلنا مجلس الأمة ، نظرت حولي وجدت أعدادًا كبيرة « يقصد أعدادًا كبيرة من المتظاهرين » بدأت أترعب وركبي تتخبط في بعض ، لقد خرج العفريت ، فكيف سنتصرف فيه ؟

دخلت مجلس الأمة بمعاونة ضابط صحت فيه : لازم أقابل حدّ كبير ، أكبر رأس ، بعد دخولي وجدت أنور السادات ومعاه نوال عامر ، قلت له : أنا عايزك تجيبلي ميكروفون ألم الناس دي كلها حول ورقة يوم الأربع « مطالب الطلاب ، هل تذكرها ؟ » جابولي ميكروفون بعد ما عرفوا إني من كلية الهندسة ، وظهر السادات إلى جانبي في الشباك، وكان يدخن سجائر « فقد كان محتفظًا بالبايب لحد ما يبقى رئيس » ، ولسه باتكلم ، واحد قال : « أنت واقف جنبه ليه ؟ » ، وتصايح الطلاب في غضب ، وفجأة قال طالب لأنور السادات :

إنت بتشرب كنت، والناس مش لاقية تأكل .

أنور أسرع بإطفاء السيجارة فصاح فيه الطالب في غضب :

وبتطفيها من نصها كمان ؟!!

قفز محمد فريد حسنين من الشباك بينما السادات يطلب من الطلاب تكوين وفد منهم يمثل الكليات المختلفة لعرض مطالبهم أمام مجلس الأمة « كان السادات رئيس مجلس الأمة وقتها ، والذي غير اسمه فيما بعد إلى مجلس الشعب » ، مقسمًا بشرفه أن من سيدخلون إليه لن يصيبهم أي سوء « بالطبع قبض على أعضاء الوفد المنتخب عند فجر اليوم التالي ، وكان السادات إذا ما أقسم بشرفه بعد ذلك وقد غدا

رئيسًا للجمهورية يتساءل الطلاب : أي شرف ؟ شرف ٦٨ ؟ » .

يقول « رماح أسعد » : وتشعب الحوار « داخل المجلس بين أعضائه ووفد الطلاب المنتخب » من أحكام الطيران إلى الهزيمة إلى الديموقراطية « خل بالك من الترتيب الذي وضع به « رماح » كلماته ، أحكام الطيران ، الهزيمة ، الديمقراطية « فأحكام الطيران كانت لحظة التفجر ، لكن لحظة التفجر هذه كان قد سبقها ـ كما وضحنا ـ غضب عرف الوسيلة ، فأصبح وعيًا متكاملًا ، والغضب هذا ، هو الذي يحرك الجماهير ، وإن احتاج تحركهم إلى شعلة للتفجر » ، بعد التفجر ، يعبر الغضب عن نفسه بالهزيمة ، وبالمطالبة بالديمقراطية ، هل غدت الأمور واضحة » ، وانتهى الحوار بقيام رئيس المجلس بجمع أسماء وبيانات الطلاب ، « تمهيدًا للقبض عليهم تبعًا لشرف ٦٨ » .

ولم يكن حظ طلاب عين شمس أفضل من طلاب جامعة القاهرة ، الذين قابلوا السادات ـ يقول معتز حفناوي في شهادته [1] : أن طلبة عين شمس كونوا وفدًا ، ذهب إلى بيت الرئيس جمال عبد الناصر « قابل الوفد السيد محمد أحمد سكرتير عبد الناصر ، وسلمه مطالب الطلاب ، فاستأذن السيد محمد أحمد خارجًا ، ليعود بعد عشر دقائق ، ويخبر الطلاب بأن عبد الناصر سيرد على هذه المطالب في خطبة جماهيرية عامة ، وأنه ـ الرئيس ـ يعرف أن وطنية الطلاب هي التي دفعتهم إلى تقديم هذه المطالب له ، وهو بدوره يطلب منكم أن تعودوا إلى الجامعة وتخبروا الطلاب برأيه ، وتفضوا الاعتصام ، واستجاب الطلبة لمطلب الرئيس " كانوا يصدقونه » ، وعادوا لمنازلهم ليقبض عليهم في الفجر ، بعد أقل من ١٢ ساعة من انتهاء لقائهم بسكرتير الرئيس جمال عبد الناصر .

(١) راجع شهادة معتز الحفناوي في الملاحق .

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يثق فيها الطلاب بالسلطة « أليس لديهم حق ؟ » .

وكانت النتيجة أن اشتدت المظاهرات :

في اليوم التالي كانت المظاهرات أعنف .

يقول رماح أسعد : في مظاهرات عين شمس يسقط أول شهيد للحركة « مضروبًا بالرصاص ، ولم يكن طالبًا » ، فيحمله المتظاهرون مضرجًا بدمائه إلى بيت عبد الناصر ، رافعين شعارات الديموقراطية ، وإقالة شعراوي جمعة وزير الداخلية « أعلن وزير الداخلية في ٢٧/ ٢/ ٦٨ ، عن عدم سقوط قتلى في الأحداث الطلابية « منتهى الصدق » ، بينما أثبت التحقيق الذي أجراه فريد الديب وكيل نيابة شرق القاهرة وقتئذٍ أن الشهيد قُتل نتيجة إصابته بمقذوف ناري من عيار (٣٠٣) لي أنفيلد ، وأن المقذوف استخرج من رقبته ، أي أن الطلقات لم تكن موجهة إلى الأقدام ، كما أثبتت التحقيقات أن قوات الأمن أطلقت النار في المليان وأحدثت العديد من الإصابات بمجموع المتظاهرين » .

لكنه برغم استئساد السلطة هذا ، اضطر جمال عبد الناصر إلى التراجع لأول مرة منذ انتخابه رئيسًا للجمهورية في عام ١٩٥٤ ، وخضع لمطلب الجماهير ، وقرر إعادة محاكمة ضباط الطيران ، في محاولة لإثبات أن اعتراض الطلاب منصب فقط على موضوع الطيران ، وأن الديمقراطية ـ التي لا يقلبها ـ لم تكن الدافع وراء حركتهم ، لكن الأمر لم يكن أمر محاكمة ضباط الطيران ، كان أكبر من هذا « هل تتذكرون ردنا على المحللين حسني النية » ، فلم يؤد رضوخ جمال عبد الناصر إلى توقف الحركة « لو كان الأمر أمر طيران « وخلاص » لتوقفت المظاهرات بعد أن وصلت إلى غرضها وتحقق لها ما تريده » .

ولأن الأمر لم يكن أمر أحكام طيران « وبس » ، استمر اعتصام الطلاب المحاصرين

داخل هندسة القاهرة برغم تراجع عبد الناصر وما أدراك ما تراجع عبد الناصر ، معلنين أن اعتصامهم لن ينتهي حتى تحقيق مطالب الطلاب ، وكانت المطالب :

١- الإفراج الفوري عن الطلاب المعتقلين .

٢- حرية الرأي والصحافة .

٣- مجلس حر يمارس حياة نيابية سليمة « المقصود مجلس أمة حر » .

٤- إبعاد المخابرات والمباحث عن الطلاب في الجامعة .

٥- إلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها .

٦- التحقيق الجدي في حادث العمال في حلوان .

٧- توضيح حقيقة المسألة في قضية الطيران .

٨- التحقيق في انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة .

والآن ملاحظة في غاية الذكاء :

ويلاحظ د. أحمد عبد الله « أحمد عبد الله رزة كما كان ينطق السادات اسمه كاملًا ، وكان قائد اعتصام جامعة القاهرة المنتخب عام ١٩٧٢م » ، إنه يتضح من المطالب أن ثلاثة منها تدور حول المسألة الديمقراطية ، بينما تشير ثلاثة أخرى منها إلى غياب الديموقراطية في الجامعة بوجه خاص ، ويركز مطلبان فقط على قضية الطيران والأحداث التي أدت « قضية الطيران » إليها « الطلبة والسياسة في مصر د. أحمد عبد الله ، دار سينا للنشر (ص١٨٦) » .

برغم هذا أخذ المحللون حسنو النية المطلب السابع ، وجعلوا الحركة كلها رد فعل له ، مجرد رد فعل .

ولنعد إلى الاعتصام في كلية الهندسة ، فقد استمر ، وتبادل فيه الطلبة وقوات

الأمن الحوار تارة وإلقاء الطوب والقنابل المسيلة للدموع مرات ، وزار المسؤولون الاعتصام لإقناع الطلبة بفضه ، لكن الحوارات انتهت بالفشل فلم تكن لدى المسؤولين حجج قوية تبرر ما يحدث ، ولم تكن لديهم نية في إذعان أكبر وقبول كل مطالب الطلاب التي تدور حول تعميق الديمقراطية ، ورفض استفراد جمال عبد الناصر بالسلطة « وسعي الطلبة اجاد إلى المشاركة التي يجب أن تتاح لكل مصري يريد أن يخدم بلاده برأيه وبفعله الذي يحول الرأي إلى حقيقة ، على أن يكون الشعب صاحب المصلحة في التغيير ـ قادرًا بمؤسساته ومنظمات المجتمع المدني على أن يضغط مستمرًا « سلميًا » حتى تتحقق هذه المطالب » .

إن الجمعيات النوعية الضاغطة ، واحدة من دعائم الديمقراطية، كما عرفها العالم ، وليت جمال عبد الناصر ، الذي كان يحبه الشعب ، فعلها ، وأعطى الشعب الذي يحبه حقهم في إنشاء تنظيماتهم وجمعياتهم وفعالياتهم الضاغطة . لو كان فعلها لما استطاع أنور السادات ـ الذي كان يحبه الفاسدون ـ أن يفعل بمصر ، ومستقبل أبنائها ، ما فعل !!!